الذات المضطهدة والثائرة في الشّعر الشّعبيّ الثوريّ

شهيرة بوخنوف •

الملخص:

سنتحدث في هذا المقال عن الذات المضطهدة والثائرة في الشعر الشّعبيّ الثوريّ،وسنركز على الذات المتمثّلة في الأنا الوطنية الجزائرية،والآخر المتمثّل في الذات الأجنبية الفرنسية من خلال الأشعار الشّعبيّة الثوريّة،والعلاقة بينهما ليست علاقة إنسانية أخلاقية،بل هي علاقة استغلال وهيمنة وسيطرة من قِبل الآخر... وهذا ما جعل الذات الجزائرية تنقسم في تلك الحقبة الزمنية إلى ذات مضطهدة،وذات ثائرة.

كلمات المفاتيح: الذات المضطهدة، الذات الثائرة، الشّعر الشّعبيّ الثوريّ.

Résumé:

Nous parlerons dans cet article sur l'auto-oppressés et rebelle dans le populaire révolutionnaire de la poésie, et nous allons nous concentrer sur l'auto de l'ego national algérien et l'autre de l'auto-français étrangère à travers la poésie populaire révolutionnaire, et la relation entre eux n'est pas morale , et n'est pas humaine, mais c'est la relation de l'exploitation et de la domination et le contrôle de l'autre partie … C'est ce qui rend l'auto-divisée algérienne en cette période de temps avec les opprimés et les rebelles.

Mots clés: auto-opprimés, rebelle, la poésie populaire révolutionnaire.

تمهيد:

وُجدت علاقة الذات بالآخر منذ الأزل، ولعلّها تعود إلى بداية الخلق على هذه الأرض، منذ وجود آدم وحواء،حين تأصل الوعي لديهما فأدركا مدى العقاب الذي سُلطا عليهما بخروجهما من الجنة نتيجة الآخر المتمثّل في الشيطان الذي وسوس لهما،والذي له عدّة وجوه في أيّامنا هذه مثل الاستعمار... ونظرا لأهمية الذات،فقد اهتم بها علم النفس،وعلم الاجتماع... كما اهتمت بها مختلف الآداب سواء كان ذلك في الشّعر أم في النثر. ويعد الشّعر الشّعبيّ الثوريّ الجزائريّ متنفسا للذات الجزائريّة،فهو من الأشعار التي اهتمت بالذات في وقت كان فيه الشّعب الجزائريّ بأمس الحاجة إلى الاهتمام بالذات بضمير (الأنا) ليعيد الاعتبار لذاته المقهورة، المضطهدة من قِبل الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمسها وتشريدها وتجويعها وهتكها.

• أستاذة، المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف - ميلة

إن خطاب الثقافة الشّعبيّة لا يخلو من إنتاج معرفة الذات ومعرفة الآخر،فقد حاول الشاعر الشّعبيّ كغيره من الشعراء البحث عن ذاته أثناء تواجد الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمس هويته، لذلك فقد رسم للآخر صورة مختلفة،فهو ليس زائرا أو سائحا، بل غاصبا للأراضي، طاردا للأهالي، قاتلا للذوات... مضطهدا لها. فإذا كان الاستعمار في المشرق العربي على شكل انتداب وحماية، فإنّه في المغرب العربي (بما فيه الجزائر) كان استيطاني، لذلك فقد سعى منذ أن وطئت قدماه أرض الجزائر إلى طمس هويته وذاته. لذلك نجد أن الذوات الجزائرية قد انقسمت في تلك الحقبة الزمنية إلى ذواتين، ذات مضطهدة، مقهورة من قِبل المحتل سياسيا واجتماعيا وعقائديا... حيث كانت تشعر بالقمع والظلم والغدر والنقص وتفوق الآخر المتمثّل في الاستعمار عليها... ولكن هذه الذات لم تبق خاضعة مضطهدة،إذ سرعان ما ثارت ضد هذا الاستعمار الغاشم،فأصبحت ذاتا ثائرة،باحثة عن ذاتها المفقودة المنكسرة،فصرخت وثارت،ودافعت عن نفسها،فاستطاعت أن تكشف عن ذاتها بعد أن طمسها الآخر (الاستعمار الفرنسي) عن قصد... لذلك نتساءل: هل اهتم الشاعر الشّعبيّ بالذات أثناء تواجد الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمس هويته؟ ما نوع الذات السائدة في تلك الحقبة الزمنية؟

الشّعر الشّعبيّ الثوريّ: هو الشّعر الذي «يصور ملامح فترة الاحتلال الفرنسي بطريقة توضح جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعرضت إلى محاولات استعمارية مقصودة تستهدف طمس معالم الثقافة القومية وإحلال ثقافة أجنبية محلها بغية عزل الشعب الجزائري عن تراثه الثقافي العربي الإسلامي»[1] ويعني هذا أنه يصف لنا الاحتلال الفرنسي للجزائر من كلّ الجوانب: اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا... أي أنه الشّعر الذي ثار في وجه الاستعمار،واصفا المقاومات الشّعبيّة ومختلف الثورات والأحداث المأساوية المرتكبة في حق الشّعب الجزائري.

يصوّر لنا الشاعر الشّعبيّ ما مرّ به المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي،إذ كان مواكبا لمختلف الأحداث القاسية التي مرّ بها المجتمع،حاملا لواء الكفاح،محاولا بث روح الحماس والجهاد في نفوس الشّعب الجزائري ليثور في وجه المستعمر الذي سلب منه الحرية... وهو يسجل المقاومات والثورات والنكبات والهزائم... بلغة عامية يفهمها الجميع، مشجعا الشعب على الجهاد والمقاومة لتحرير الشّعب من الاستعمار.

الذات لغة واصطلاحا:

ورد عند الجرجاني «الذاتي لكل شيء ما يخصّه ويميّزه عن جميع ما عداه وقيل ذات الشيء نفسه وعينه»[2] فالذات عند الجرجاني إذن هو بمفهوم النفس والعين،أي كلّ ما يخص الذات.

---

[1] – التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830 – 1945، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص97.

[2] - علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان،1985،ص 112.

شغل موضوع الذات الباحثين منذ القدم «فمثلا القديس أوكستين في اعترافاته التي كتبها قبل أكثر من 1500عام يؤكد إمكانية بناء الذات،وقبل ذلك بألف عام نجد أيضا البوذية وما طرحته كمشروع لإعادة تكوين النفس»[3]. كما تحدث عن الذات فلاسفة اليونان،وسقراط،وأرسطو،كما تحدث عنه العربي ابن سينا الذي عرفه بأنه الصورة المعرفية للنفس البشرية. واستخدمه فرويد تحت اسم (الأنا) «إن الأنا يقوم بنقل تأثير العالم الخارجي إلى الهو وما فيه من نزعات، ويحاول أن يضع مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة الذي يسيطر على الهو. ويلعب الإدراك الحسي في الأنا نفس الدور الذي تلعبه الغريزة في الهو. ويمثل الأنا ما نسميه الحكمة وسلامة العقل،على خلاف الهو الذي يحوي الانفعالات... فمن بدن الشخص ذاته، ومن سطح البدن على الأخص تنبعث الإدراكات الحسية الخارجية والداخلية... إن الأنا هو أولا وبالذات أنا بدني»[4] فالأنا هي العقل المدرك الحسيّ المنبعث من بدن الشخص أي ذاته.

والذات «ميتافيزيقيا: هي حقيقة الموجود ومقوماته وتقابل العرض،وعند الكلام عن الله عز وجل يقال: الذات الإلهية»[5]. و«في نظرية المعرفة: الذات ما به الشعور والتفكير،فتقف الذات على الواقع وتتقبل الرغبات والمطالب،وتوجد الصور الذهنية،وتقابل العالم الخارجي،ويطلق اللفظ الأجنبي على ما يساوي الماهية،وهي الخصائص الذاتية لموضوع معين،وتقابل الموجود،ومنه التعبير الشائع:الوجود والماهية»[6] فالذات إذن تقابل الموجود.

أما الذات فلسفيا فهي مجموع صفات وأفعال معينة،إذ «كان يقصد مبدئيا بالذات (عند أرسطو مثلا) مجموع صفات وحالات وأفعال معينة،وبهذا المعنى كان يوحد بينها وبين مفهوم الجوهر»[7]،فالذات عند أرسطو تقابل الجوهر.

وترتبط الذات بالغير،فمن «لم يستطع أن يتحدث عن نفسه لم يستطع أن يتحدث عن غيره، ولذلك ترتبط مشكلة الغير ارتباطا وثيقا بمشكلة الذاتية والشخصية في تاريخ الفلسفة. والشعور بالشخصية شعورا قويا يستتبع الشعور بالآخر كحد للمقاومة أو بوصفه القطب الذي إليه تتجه الذات»[8] فمعرفة الذات إذن يستتبع معرفة الغير (الآخر) للتوجه إليه أو مقاومته، فمعرفة الذات الجزائرية للآخر الأجنبي الفرنسي دفعها للمقاومة والثورة لاسترجاع ذاتها المضطهدة المنكسرة.

---

[3] - هارلمبس وهولبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2010، ص104.

[4] - سيجمند فرويد: الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، ط4، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1982، ص 42 – 43- 44.

[5] - مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 1983، ص 87.

[6] - م . ن، ص. ن.

[7] - رونتال يودين: الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2006، ص216.

[8] - فؤاد كامل: الغير في فلسفة سارتر، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف بمصر، مصر، د. ت، ص 12.

فالـذات هـي نقـيض الآخـر، يقـول لالانـد «آخر،غيـر:أحـد مفـاهيم الفكـر الأساسـية،ومن ثم يمتنع تعريفه فهـو نقـيض الـذات»[9]. لـذلك «يتخـذ رنوفييـه مـن تعـارض الذات والغير الأطروحة ونقيضتها لمقولة الشخصية التي يكون توليفها هو الوعي أو الشخص. فبينما يجري في الأغلب تصوّر الأنا Le moi كأنه فكرة تكفي ذاتها بذاتها،على المنوال الديكارتي "لا يعطى الذات والغير إلا بنسبة أحدهما إلى الآخر وفي نطاق توليفهما»[10]. فمعرفة الذات تؤدي إلى معرفة الآخر.

و«الإنسـان لا يصبح ذاتـا إلا في التـاريخ وفي المجتمع،ولهـذا السـبب فهـو لـيس فـردا مجـردا، وإنمـا هـو موجـود اجتمـاعي، كل قدراتـه وإمكانياتـه تشـكلها الممارسـة. ومـع ذلـك فـإن الإنسان – باعتباره القوة الايجابية في التفاعل بين الذات والموضوع – يعتمد على الموضوع في نشـاطه»[11] فالـذات مرتبطـة بالتـاريخ والمجتمع،مثـل الـذات الجزائريـة المرتبطـة بالتـاريخ أثنـاء تواجد الاستعمار الفرنسي.

والإحسـاس بالـذات هـو إحسـاس بالهويـة و«الهويّة قائمـة على الحرّيـة لأنهـا إحسـاس بالـذات، والـذات حرّة. والحرّيـة قائمـة على الهويّة لأنهـا تعبير عنهـا. والحرّيـة تحـرّر أي أنهـا إمكانيّة لأن يكون الإنسـان حرّا... فالإنسـان اليـومي يوجـد أوّلا،يعيش أوّلا ثم يعي ذاتـه ثانيـا. يـأتي الـوعي الـذاتي بعـد الوجـود البـدني،ثم يـأتي الـوعي بالعـالم المحـيط»[12] فبعـد الوجـود البـدني يعي الإنسـان ذاتـه، ثم يعي العـالم المحيط بـه. فبعـد أن وعى الإنسـان الجزائري ذاتـه المضطهدة من قِبل الاستعمار،وعى العـالم المحيط بـه فثار على وجـه هـذا الاسـتعمار الغاشـم ليحـرّر ذاتـه من قبضته.

أما في علم النفس،فيشير «هول ولندزي إلى أن كلمة الذات تستعمل في علم النفس في معنيين متمايزين هما الـذات كعملية،والـذات كموضـوع... وبهـذا فـإن الـذات كبنـاء تـرتبط بمجموعة من العمليات الوظيفية لتنظيم الحياة وتحقيق التكيف،وتعرف بأنها مجموعة من السلوكيات التي تحكم السلوك والتوافق ويطلق عليها الذات. أما الذات كموضوع فتعرف على أنها اتجاهات الشخص ومشاعره عن نفسه ويطلق عليها مفهوم الذات الموضوعية»[13].

وتقـوم نظريـة مفهـوم الـذات عنـد الأمريكي كارل روجـرز على عـدد مـن الافتراضـات منها[14]:

---

9 - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، المجلد الأول A – G، منشورات عويدات، بيروت، د. ت، ص 124

10 – أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، المجلد الثالث R - Z، منشورات عويدات، بيروت، د. ت، ص .1309

11 - رونتال يودين: م. س، ص 217.

12 - حسن حنفي حسنين: الهوية، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012، ص 23.

13 - عبير بنت محمد حسن عسيري: علاقة تشكل هوية الأنا بكل من مفهوم الذات والتوافق "النفسي والاجتماعي والعام" لدى عينة من طالبات المرحلة الثانوية بمدينة الطائف، إشراف: حسين عبد الفتاح الغامدي، مذكرة ماجستير، قسم علم النفس، جامعة أم القرى، السعودية، 1424هـ (2003م)، ص28.

14 – م. ن، ص29 – 33.

- لكلّ فرد ميل لتحقيق ذاته،والمحافظة عليها ومقاومة التهديدات التي يتعرض لها، واستغلال قدراته الكامنة إلى أقصى درجة ممكنة في سبيل تحقيق أهدافه.

- تمثل الذات كينون وماهية الفرد،وتنمو كنتيجة التفاعل بين الفرد والبيئة المحيطة به،ثم تنمو نتيجة للنضج والتعلم،وتصبح المركز الذي يجمع الخبرات التي يمر بها الفرد.

- يحدث سوء التوافق النفسي عندما ينكر أو يتجاهل الخبرة التي تحدث له،أو يشوهها لأنها لا تتطابق مع ذاته،ومن ثم يدركها على أنها خبرات مهدّدة له، مما يسبب له القلق والتوتر...

فالإنسان يعبّر عن ذاته في كلّ سلوك وقول وفعل،ويدرك الآخرون ذات الفرد من خلال ما يقوم به من سلوك... ومن ثم فالذات هي مجموعة من التصوّرات التي يكوّنها الفرد على ذاته،أي نظرة الشخص إلى نفسه كما يتصوّرها.

والبنيوية -كما نعلم - قد جردت النص من الذات،فأصبح النص هيكلا داخليا لا علاقة له بصاحبه،فهي تتعامل مع النص الأدبي على أنه بنية مكتفية بذاتها،متجاهلة دور المبدع في ذلك النص... لكن الدّراسات الأدبيّة الحديثة قد شهدت إقبالا ملحوظا على الذات،سواء من الجانب التنظيري أو الجانب التطبيقي،وسواء كان ذلك في الشّعر أم في النثر. وسنركز حديثنا في هذا المقال على الذات الجزائريّة أثناء تواجد الاستعمار الفرنسي في جانب الشّعر.

وما نريد التنويه به، أن الذات الفردية الجزائرية مرتبطة أثناء تواجد الاستعمار الفرنسي بالذات الجماعية الوطنية أشد الارتباط،فرغم كلّ الظروف السياسيّة الفرنسيّة القاهرة والإغراءات المختلفة التي حاولت التفرقة بين الذات الفرديّة والذات الجماعيّة إلا أنها باءت بالفشل لتمسك الذوات الجزائرية ببعضها البعض،إذ «حاولت السلطات الفرنسية "فرنسة الجزائر"، وعملت جاهدة لإقناع الشعب الجزائري بادعائها هذا، وقدمت له جميع أنواع الإغراءات مظهرة للجزائريّين حسن نواياها وأنّ كل ما تقوم به إنما هو لصالحة الشّعب الجزائري. لكن الشّعب الجزائري رفض جميع العروض التي قدمت له لأنّها من الأساس كان يرفض الأمر الواقع،ولأنّه صمّم على تحرير بلاده من الاحتلال الفرنسي»[15].

والذات ملتصقة بالهوية التصاقا شديدا حتى لا نكاد نجد بينهما فرقا واضحا،فهما وجهان لعملة واحدة، فمسألة الهوية تدخل في صميم جدلية الأنا والآخر ليكشف لنا الشّعر الشّعبيّ اكتشاف الذات لذاتها، ووعيها بالآخر المضطهد لها. كما أن الوعي بالذات يستوجب الوعي بالآخر، فالذات لا تثبت وجودها إلا من خلال علاقتها مع الآخر.

وتنقسم الذوات إلى أنواع كثيرة: منها الذات المضطهدة،الذات المتصوفة،الذات المغتربة، الذات الثائرة،الذات العاشقة... وما يهمنا نحن منها في هذا المقام والتي تتناسب مع الشّعر الشّعبيّ الثّوريّ هي الذات المضطهدة والذات الثائرة.

15 – موسوعة: قصة وتاريخ الحضارات العربية السابقة، ص132.

أوّلا - الذات المضطهدة: هي التي «تشعر بأنها وقعت ضحية لعدوان وكيد بفعل خارجي»[16] فهي إذا الذات المنكسرة المضطهدة من قِبل عامل خارجي،ويتمثّل في الشّعر الشّعبيّ الثوريّ الجزائريّ بالمستعمر الفرنسي.

وقد قسمنا هذه الذات – حسب المدوّنة الشّعريّة الشّعبيّة المتوفرة لدينا- إلى:

1- الذات المضطهدة اقتصاديا: كان اقتصاد الجزائريّين قائما على البترول والفلاحة، إذ «كانت تتمتع بإمكانيات اقتصادية ضخمة قبل الاحتلال. فقد كانت أرضها خصبة، ولاسيّما في الشمال،تدر أنواعا مختلفة من الحبوب، والخضر والفواكه. ويوجد فيها كما لاحظ الرحالة والزائرون،مناجم الحديد والرصاص والملح، غابات كثيرة كانت تفيض عن الحاجات المحلية لبناء السفن والتسخين وبناء المنازل...»[17] لكن بعد أن احتلت فرنسا الجزائر سيطرت على ذلك البترول،وعلى كلّ الأراضي الفلاحية الصالحة للزراعة «ولم يتوقف الاستعمار الفرنسي إلى هذا الحد،بل واصل سياسته الجائرة تجاه الجزائريين بتفقيرهم ومصادرة أخصب أراضيهم الفلاحية عنوة بواسطة قوانين ومنحها للمعمرين الأوربيين من مغامرين متشردين فرنسيين وإسبان وإيطاليين ومالطيين،وأصبح الجزائريون خماسين عندهم غرباء في بلادهم لا يتمتعون بأبسط الحقوق»[18]. استولت فرنسا على مختلف مصانع البترول،أصبحت تسيّرها كما تريد لتنهض باقتصادها المتدهور في تلك الحقبة الزمنية،كما قامت بطرد الأهالي إلى الجبال والأراضي القاحلة الجرداء،منتزعة منهم بالقوة أراضيهم الزراعية التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم،وتوزيعها على الفرنسيّين والمعمرين. أصبحت الذات الجزائرية غريبة وهي في دارها... يقول الشاعر "بزيز بادر" الجلفي في قصيدته "ربما الماضي بالمستقبل"[19]:

الجزائر واش كانت تتمثل نعطيك لمحة عليها وقتا
حكم الاستعمار فيها واش عمل من وقت اللي احتلها حتى للمات
كان الشعب أخرين عايش تحت الذل في وطن محروم من كل الخيرات

---

16 - منال بنت عبد العزيز العيسى: الذات المروية على لسان الأنا، دراسة في نماذج من الرواية العربية، إشراف حسين عبد العزيز الواد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 2010، ص 392.

17 - أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 149 – 150.

18 – عمورة عمار: موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 118. وقد «صرح الجنرال بيجو من منبر البرلمان الفرنسي يوم 14 ماي 1840 قائلا "حيثما وجدت مياه صالحة وأراضي خصبة، يحق للأوروبيّين الإقامة فيها دون البحث عن مالكها. وبما أن الجزائريين سوف يدافعون عن أراضيهم بكل قوة ولن يتخلوا عنها بسهولة للمستوطنين الأوروبيين، يجب أن ندفعهم بالقوة إلى الصحراء، وهناك إما ألا يستطيعوا العيش، وعندئذ سوف يرجعون خاضعين ليكونوا خدما يعملون بثمن بخص عند الأوروبيين وإما أن يبقوا هناك وعندئذ نستطيع أن نمكن المعمرين من الأرض بكل حرية"» عمورة عمار: م. ن، ص. ن.

19 - بزيز بادر: "ربما الماضي بالمستقبل"، مجلة أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، من 17 إلى 21 نوفمبر، 1999، ص 147.

داروا له قياد لكفار تقتل أو قهروه الحكام والبشقوات
والمعمرون في أرض تحتل واشيوخ الكولون داروا مزرعات
الأرض الزينة يملكوها بالمنزل مجرمين أيوزعو فيها قطعات
مول الأرض اللي أصبح بها يعمل في الأعمال الشاقة تحت الطغاة

سيطرت فرنسا إذن على كلّ الأراضي الزراعية،وجعلت أصحابها يعملون فيها كالعبيد «وبعد كل ما أقدمت عليه ضد الشعب الجزائري،راحت تساعد المستوطنين الفرنسيّين للسيطرة على الحياة الاقتصادية في البلاد سيطرة تامة لدرجة أصبح فيها الجزائريّون شعبا فقيرا معدما يعمل أفراده مثل العبيد في خدمة الفرنسيّين»[20]. أصبحت الذات الجزائرية عبيدا وهي في وطنها وأراضيها. كما أُنتزعت منها أشجارها المثمرة، فصارت الذات تنظر إلى ثمار أشجارها المتنوعة عبر الشباك والثقوب،والآخر يتمتع بها، يقول الشاعر الشّعبيّ في هذا الصدد[21]:

ذرية لويس كانت تدلّل مبسوط بالخير تاكل في الثمرات
ولد الأصل يجي حذا الشباك يطل يتأمل بغصان هاذوك الشجيرات

وليس هذا وحسب، بل أحرق الأراضي والأشجار التي يملكها بعض أهالي الجزائريّين،يقول الشاعر الأغواطي "التوهامي عبد القادر"،في قصيدته "مقاومة أولاد سيدي ناصر"[22]:

أحرق الأرض ما هداش السّناقة خاف من السبوعة حرق حتى التشجير
وحرق الخيام ونهب وسرقه ومن خير البلاد أدى الملايير

قام الآخر المتمثّل في الاستعمار بنهب خيرات البلاد،فترك الذات الجزائرية في معاناة وعبودية،وفقر مدقع،يقول الشاعر "طاهير بلحاج"[23]:

أميا وتلاثين أسنا عبودية أنتما في بلادنا معمرين
عدّيناها فقر وميزيريا أنهبتو ثروتنا وحنا محرومينا

يعني هذا أن الذات الجماعية الجزائرية قد أُضطهدت في أراضيها من قِبل الآخر المحتل لها اقتصاديا،نهب ثرواتها الطبيعية وخيرات أرضها المعطاء،فتركها تذوق كلّ أنواع الفقر والعذاب... في حين كان شعبها يتمتع بها، متخذا من أهلها عبيدا له.

2- الذات المضطهدة اجتماعيا: وهي الذات المضطهدة اجتماعيا من قِبل الآخر المحتل،الذي حاول تمزيق أفراد المجتمع وتشتيتهم،وبعثرتهم في مختلف أنحاء الصحراء... حتى شعرت الذات بالانكسار والظلم،وفقدت الشعور بهويتها نتيجة «إبعاد الفلاحين عن المدن

---

[20] – موسوعة: قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم، تاريخية – جغرافية – حضارية وأدبية، تونس، الجزائر، ج 21 – 22، Edito Creps، 1998 – 1999، ص133.

[21] - بزيز بادر: م. س، ص 148.

[22] - التوهامي عبد القادر: "مقاومة أولاد سيدي ناصر"، مجلة أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، من 17 إلى 21 نوفمبر، 1999، ص 164.

[23] – طاهير بلحاج: "التدخلات الأجنبية"، مجلة أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، من 17 إلى 21 نوفمبر، 1999، ص 206.

والسواحل،

ومحاصرتهم في الصحراء،الأمر الذي حطّم في نفوسهم الشعور بالهوية والانتماء وحوّلهم إلى مجموعة بشرية منبوذة في مجتمع طبقي مغلق...»[24].

عانت الذات الجزائرية مختلف أنواع العذاب والتنكيل والقهر أثناء تواجد الآخر في أراضيها، فكانت تسكن في بيوت قديمة عتيقة لا تقيها برد الشتاء ولا حرّ الصّيف اللافح... يقول الشاعر في هذا الشأن[25]:

في كوخ القزدير ساكن يتململ حاير في وقت الشتا لاوين ايبات
ذا الحكم الغدار شوفو وين وصل أولاد الأحرار داروهم رعاة

ويقول شاعر آخر واصفا الحياة الاجتماعية التي كانت تعيشها الذات الجزائرية[26]:

أولاده في القصور وحنا في الزنقة على الشوك انّاموا وهم لقطن وحرير
حب الشعب يموت بالفقر وفاقه وياكل الملة ويرقد فوق حصير
الشعب اسادات ضاق المشقة ذا الشعب المسكين طاب طياب الجير

كما فقدت الذات الآباء والأمهات، فعانت من اليتم والتشرد والضياع والدمار وهي داخل بلدها، يقول في هذا الشأن الشاعر "البار أحمد"[27]:

يا وطني قداه من صبيان صقار ماتت أمه على اصدرها في البزول
يا وطني ماذا احصدنا من دمّار ذاك أعمى هذا مكسر ذا مشلول
يا وطني قداه حرقوا من دوار هاذا هامل ذا مشرد ذا مهبول
ذا قتلوه وذاك صاقوه الزكار ذا يتعذب ذا مسلسل ذا منقول

وقد كثر الخائنين داخل الوطن، فانظموا إلى فرنسا التي أغرتهم بكلّ الوسائل،فأصبحوا يقتلون إخوانهم الجزائريّين، وهو الشيء الذي أبكى الشاعر الشّعبيّ[28]: أبي قتله قومي

جييت على سيدي علي نلقي طفلة تبكي
قالت أبي قتله قومي بايع دينو وسنيا رومي

تصف هذه الأبيات الشّعريّة الشّعبيّة الحالة الاجتماعية للذات الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي فعانى المجتمع الجزائري من التشرد واليتم والجوع والقهر... مدة طويلة فكسرت ذاته واضطهدت من قِبل هذا المستعمر الظالم لها.

3- الذات المضطهدة ثقافيا وعقائديا: وهي الذات التي أُضطهدت من الناحية

---

24 – موسوعة: قصة وتاريخ الحضارات العربية السابقة، ص136.
25 - بزيز بادر: م. س، ص 148.
26 – التوهامي عبد القادر: م. س، ص 164.
27 – البار أحمد: "ملحمة الجزائر"، مجلة أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، من 17 إلى 21 نوفمبر، 1999، ص 187.
28 – العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت، ص 205.

الثقافية والدينية، فمُنعت من التعليم سواء كان ذلك في المدارس، أو المساجد، أو الزوايا... لذلك فقد شعرت الذات بالجهل والقمع الديني من قِبل الآخر الذي تختلف عنه، فقد «عملت فرنسا منذ أن وضعت أقدامها على التراب الجزائري بمحاربة والاستيلاء على الأوقاف الإسلامية باعتبارها الراعي والممون الرئيسي للنشاطات الدينية والتعليمية وفي نفس الوقت تشكل عائقا كبيرا في وجه المخطط الاستعماري»[29] وهذا يعني أن الآخر بعد أن قضى على الذات الجزائرية ماديا، حاول أن يقضي عليها روحيا وعلميا، يقول الشاعر الشّعبيّ[30]:

حب الشعب يكون جاهل لافيقة في وطنه ويعيش تحت أسواط الغير

حاول الآخر تجهيل الذات الجزائرية حتى لا تستفيق للدفاع عن نفسها، لذلك فقد «سلكت فرنسا سياسة إقصاء اتجاه أبناء الجزائر تعتمد على التجهيل والأمية حتى يمكنها أن تحكم سيطرتها التامة عليهم ولم تسمح لهم بالتعليم إلا في حدود ضيقة للغاية. فقد قضى الاستعمار على معظم المعاهد الإسلامية والمكتبات... وحولوها بالمدارس الفرنسية، وجراء ذلك بلغت نسبة الأمية بين الجزائريين 99% بين النساء و95% بين الرجال...»[31] فمعظم الذوات الجزائرية إذن أميّة لا تستطيع حتى كتابة الرسائل[32]:

يا خوية يا ابن عمي لا من يكتب لي برية
أنا ماشي للناحية ودي خبري للمالية

وقد حولوا المدارس والمساجد إلى كنائس، يقول الشاعر "الحاج سعيد"[33]:

إِوَزَف ُونْ يْلاَنْ مُوهَابْ حتى أزفون* الذي كانت له هيبة
يگشْمْ الكَافْرْ أَگالِيسْ دخل الكافر أرضه
أَپنَانْ لَقْلِيزْ إِوْرَحَابْ شيدوا كنيسة فيه للمعمرين
أَرْنَانْ أَشْقْلَالْ ذَخْلِيسْ ووضعوا بداخله الصليب
سَنَاقُوسْ لَيَطَيْطَبْ بالناقوس تعلن الأوقات
المُومْنْ يْجْرَاحْ ووِلِيسْ فالمؤمن قلبه مجروح

ونجد أن الخائنين الذين انظموا إلى فرنسا قد باعوا دينهم على حد تعبير الشاعر الشّعبيّ[34]:

هزينا لعلامات في دار المير

---

29 – عمورة عمار: م. س، ص 124.
30 - التوهامي عبد القادر: م. س، ص 164.
31 – عمورة عمار: م. س، ص 126.
32 – العربي دحو: م. س، ص 171.
33 – حكيم رحمون: "دور الشعر الثوري القبائلي في الحفاظ على الهوية الوطنية (شعر الحاج سعيد أنموذجا)"، ملتقى الأناشيد الوطنية ودورها التعبوي خلال الثورة، 15 – 16 ماي 2013م، ج2، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، ص378.
* - دائرة من دوائر ولاية تيزي وزو.
34 – م. ن، ص 201.

واش أربحتو يا خاينين الدين

عانت الذات بسبب تمسكها بالعقيدة الإسلامية كثيرا، فقام الآخر بهدم وحرق المساجد ليبعد الذات عن مقومها الإسلامي الراسخ في نفسها،إذ «هدم كثيرا من المساجد، وحول أعدادا كثيرة منها إلى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات وحتى إلى ملاهي لأجناده وماخورات عمومية...»[35].

وإذا كانت الذات الجزائرية معروفة بالتمسك بمختلف القيّم الروحيّة والخلقيّة كالوفاء بالعهود، فإن الآخر الأجنبي عكسه تماما، إذ نجد أنه وعد الجزائريّين بالاستقلال إذا ما ساعدوها في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا، فساعدها الشّعب الجزائريّ منتظرا منه الوفاء بالعهد، لكنه خان العهد فرد صنيعهم الجميل بمجازر لن تنسى يوم الثامن ماي 1945م في بعض مناطق الجزائر (سطيف، قالمة، خراطة...) فأحست الذات بالعبودية والذل، يقول الشاعر واصفا تلك الأحداث[36]:

أعطونا عهود في يوم موعود
كذبوا على الجدود أولاد الرومية
المستعمر أغضب غيّر المطلب
واقتل العرب ناس الهمية
مجازر كبار وقعت يا حضار
في الخمسة وربعين الشعب الحزين
عانى منها سنين محنة وابلية
حسبونا عبيد وإلا ماشينة

ثانيا- الذات الثائرة: الذات هي الحارسة للوجود، ومن ثم فهي تدافع عن نفسها ضد أي هجوم خارجي، منتهكٍ لحقوقها. فبعد أن أدرك الشّعب الجزائريّ أن ذاته أُنتهكت واضطهدت من قِبل الآخر المتمثّل في الاستعمار الفرنسي ثار ضده بكلّ ما أوتي من قوة ليرد لذاته الاعتبار والكرامة... فالثورة تدل على الجرح الكائن والثابت في أغوار الذات وكينونتها، إنها ذات مليئة بالجراح والنيران، لا يطفئها إلا لهيب الثورة ضد المضطهد والظالم لها...

بعد أن خان الآخر وعوده التي أعطاها للذات الجزائرية التي وثقت به، أدركت هذه الذات أن ما أخذ بالقوة لا يُسترجع إلا بالقوة، فاختارت الحرب والثأر، والموت على حياة الذل[37]:

يكفينا ما فات وشبعنا دمار موت العز ولا حيات اللي مذلول
ذي المره نخوضوها حرب قمار من خشى كيد لعدونا وش يقول

---

35 - العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر –دراسة- ج1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص 20.

36 – بغدادي لخضر: "وعد لم يتحقق" مجلة أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي والأغنية البدوية، من 17 إلى 21 نوفمبر، 1999، ص201 – 202 – 203.

37 – البار أحمد، م. س، ص 186 – 187.

الله أكبر نخلفوا منهم الثار باب الصلح يكون مفتاحه مقفول

هكذا بدأت الذات الجزائرية تفكر وتهيئ نفسها للقضاء على هذا الآخر المستعمر، لتعلن ثورتها يوم الفاتح نوفمبر 1954م ثائرة عليه من كلّ الجوانب:

1- الذات الثائرة اقتصاديا: جُوعت الذات الجماعية الجزائرية من قِبل الآخر الذي انتزع منها الأراضي الصالحة للزراعة، فثارت عليه لترد لنفسها خيرات بلدها المتنوعة، يقول الشاعر الشّعبيّ مشجعا الشباب للصعود إلى الجبال، أي يناديهم للثورة لأن الحرب لم تقدم لهم سوى العطش والجوع[38]:

تشجعوا يا شبان

أتشجعوا يا شبان قدموا البغال

نهربو للجبال

هذا الحرب قدم لينا

الجوع والعطش زاد علينا

ظن الآخر الأجنبي بأنه سيستولي على ثروات وخيرات الذات الجزائرية إلى الممات، لكنه مخطئ في ذلك، يقول الشاعر الشّعبيّ في هذا الشأن[39]:

طمعوا في ثرواتنا ليهم تكمل راهم ظنو يملكونا للماة

واحنا ما نرضاش بهم نتحمل والزعامة خطّوا ليهم خطّاة

غيم الثورة جا على الأجبال أمضل ريحه بارد فيه كذا من نسمات

ويقول شاعر آخر ساخرا من الجنرال ديغول، الذي هزمه المجاهدون[40]:

ديغول يا طماع هبلاتو الدقلة

هلكوه الرجال ودوخوه كالبقله

2- الذات الثائرة اجتماعيا: بعد أن قتل الآخر الكثير من الجزائريّين، ودمر منازلهم وشرد ويتم أطفالهم... فها هو الشّعب يثأر ويثور دفاعا عن وطنه[41]:

يعطيك الصحة يا سي سليمان

يا للي مسطالي بين الكيفان

طيح العسكر مثل الذبان

أقتل القبطان ومعاه لجودان

ويصف شاعر آخر لهيب الثورة المقدّسة التي جعلت الآخر يفشل رغم عدته وعتاده[42]:

---

38 – العربي دحو: م. س، ص 204.

39 – بزيز بادر: م. س، ص 148.

40 – العربي دحو: م. س، ص199.

41 – م. ن، ص 197.

42 – بزيز بادر: م. س، ص 148.

الثورة لهيبها بالنار أشعل واشتد القتال سبع سنوات
في ذا الفترة حس الاستعمار افشل حاول فيها كم من محاول
أيعزز في قوته فيها يجمل قاللهم نقضي على هذا السادات
جاب الطائرات في الجو تقنبل والجيوش أمسلحة بالدبابات
والهزيمة ديما بهم تنزل من جيش التحرير ذوّقهم لسعات

ثارت الذات على الآخر نتيجة تدمير منازلها، فأصبحت بعد الاستقلال تملك المنازل والسيارات[43]:

بالنجمة وهلال فرظوها شطار وسط سماها صاعدة للبعد تزول
حتى عاد السيل بمياه خرخار وحصدنا ثمار أبساتين وسيول
أصبح مجاهد كاسب عشر أديار ومن النوع الرفيع السيارات يجول

وهناك من وعد نفسه أن لا يتزوج حتى تستقل الجزائر[44]:

والله ما نزوج احلفت وأعطيت العاهد
حتى تستقل الجزائر ندى الشباب المجاهد

وقد التحمت الذات الفردية مع الذات الجماعية، فبعد أن فرقها الاستعمار أعادت لنفسها الثقة فوضعت يدا بيد لتحرير البلد، يقول الشاعر الشّعبيّ[45]:

المُجَاهِدِينْ إِحْرَارْ المجاهدون الأحرار
حَاذْرْتْ أَتْمِفْرَاقْمْ أَلْطْيُورْ حذار أن تتفرقوا يا طيور
أَفُوسْ قْفُوسْ أَيِحْرَارْ يد بيد أيّها الأحرار
بَاشِي ثَمُورْتْ أَتْحْرْ لكي يتحرر البلد

3- الذات الثائرة ثقافيا وعقائديا: ثارت الذات على الآخر الذي اضطهدها من الناحية التعليمية، فحرمها التعليم في المدارس والمساجد، وعوضها بملاهي وكنائس، لطمس هوية الذات الجزائرية... يقول الشاعر الشّعبيّ بأن ثورة نوفمبر ستنصر الدين[46]:

لوراسيون لوراسيون عملوا لاجتماع ليلة الاثنين
أول نوفمبر ربع وخمسين نجمة وهلال تنصر الدين

ويقول الشاعر بأنه حين تستقل الجزائر وتعيد حريتها التي سلبها منها الآخر، سيهتمون بالدين الإسلامي[47]:

يا وطني يا وطني يا وطني الغالي والزين

---

43 – البار أحمد: م. س، ص 188.
44 – العربي دحو: م. س، ص 221.
45 – مصطفى. ب: 60 سنة، أميّ، سجلنا عنه يوم 04 ماي 2017م، بلدية ودائرة: خراطة، ولاية بجاية.
46 - العربي دحو: م. س، ص 218.
47 - م. ن، ص 211.

تربحوا الحرية وانقومو بالدين

ورغم محاولة فرنسا إبعاد الذات الجماعية الجزائرية عن الدين الإسلامي، إلا أنها تمسكت بعقيدتها الإسلامية، من خلال التوكل والدعاء لله عز وجل[48]:

دربنا لبليميور بلا طيارة بلا بابور ببركة ربي والرسول وبيه نجيبو الحرية

فالذات كانت تطلب العون من الله سبحانه وتعالى ليساعد المجاهدين المدافعين عن الحق والدين[49]:

عين يا رب عين

عين يا ربي المجاهدين

واحليل يا ربي احليل المجاهد

نصارين الحق والدين

ويقول شاعر آخر داعيا الله بأن يساعد الجنود[50]:

الجنود على رجليهم يا رب أقبل عليهم

إذا ماتوا الجنة ليهم وإذا ربحو مبروك عليهم

نستنتج من كلّ ما سبق أن الشّعر الشّعبيّ الثوريّ الجزائريّ كغيره من الأشعار اهتم بمسألة الذات المتمثّلة في الجزائر والآخر المتمثّل في الاستعمار... بين عالم يحرص على الحفاظ على مقوماته الوطنية، الثقافية والحضارية التي تمثّل هويته، وبين عالم يحرص على إحداث قطيعة بين أبناء الوطن، ومن ثم هدم الذات واضطهادها غير معترف بها.

اضطهد الآخر الذات الجزائرية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ودينيا... فأحست بالغربة والضياع والانكسار وهي في عقر دارها، وهي غربة معنوية أكثر ضررا على النفس من الغربة الحقيقية المتمثّلة في بعد الذات وانفصالها عن الوطن نتيجة الظروف، لأنّها أُضطهدت وهي داخل وطنها نتيجة القوانين المجحفة والظالمة في حقها... فكانت ذاتا تائهة، تسير بخطى متعثرة نحو المجهول بعد أن طُمست هويتها وخصوصيتها الثقافية.

استرجعت الذات ثقتها بنفسها، ولاسيما بعد مجازر الثامن ماي 1945م... حيث أدركت أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، فثارت على الآخر من جميع الجوانب: اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعقائديا... محاولة إعادة الاعتبار لذاتها ولهويتها ومن ثم الحصول على الحرية والاستقلال... أي أنه بعد أن شعرت الذات بالاضطهاد والضياع، ثارت على وجه الاستعمار مستعملة القوة لاسترجاع ذاتها المفقودة.

48 – عبد العزيز شويط: دور النشيد الشعبي الجزائري في معركة التحرير الكبرى، ص 32.

49 - م. ن، ص. ن.

50 – العربي دحو: م. س، ص 226.